مقابلة الآداب : ٣

توارد الخواطر

بين بعض ادباء العرب وغيرهم من ادباء الاجانب

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

نبدأ ، في هذا القسم ، بذكر توارد الخواطر بين بعض ادباء العرب وغيرهم من ادباء الشعوب . وتوارد الخواطر هو اتفاق غير مقصود نتحققه بين بعض منتوجات ادمغة الاجانب ومنتوجات ادمغة المفكرين بلغتنا . حتى اذا انتهينا منهُ عرضنا لذكر الاتفاق المقصود وهو ما نسميه بالاقتباس ، فالمجاراة ، فالتأثر .

ونحن أبعد من ان ندّعي الإحاطة بجميع وجوه الشبه بين آدابنا وآداب الاجانب . لان عملاً كهذا ، اذا فرضنا امكانه ، يتطلّب معدّات تجهيزيّة وافرة ، ووقتاً طويلاً ، وجلداً قويّاً . وليس شيء منها في مقدورنا اليوم . اذاً فلا يستغرب المطالع اذا رأى نقصاً في الاستشهادات ، او اهمالاً في الموضوعات ، او سهواً في ذكر الادباء . فليست غايتنا سرد جدول بالمعاني والصور المتشابهة بين ادبنا وادب الغير . انما قصدُنا عرض بعض امثلة متشابهة من اقوال كُتّاب اختلفوا عصراً ، وبلداً ، وتنشئةً ، ولغةً ، ودِيناً ، نقيمها برهاناً على غايتنا من البحث في مقابلة الآداب ، وهي « ان لبعض الظواهر الحيويّة تأثيراً واحداً في البشر على السواء ، يدفعهم الى اصدار حكم واحد مهما تنوّعت نزعاتهم وشخصياتهم . »[1]

لكل امة ميولٌ خاصة الى انواع من الفنون الادبية قد لا تروق لغيرها من الامم ؛ وذوق قومي في مظاهر من الجمال قد يراها غيرها ثانوية ؛ وارتياح شعبي الى اساليب من التعبير وطرق من الاستعارات والتشابيه قد لا يُقرّها جيرانها بل قد لا يشعرون بها . وما هذه الميول ، وهذا الذوق ، وهذا الارتياح

١) راجع ما قلناه بهذا الصدد في مشرق كانون الثاني من هذه السنة ، (ص: ٣٥)

الأ صفات التنشئة العقلية الخاصة بكل امة ، والناتجة من تأثير العصر والبيئة وما يجرّانه من عوامل الوراثة ، والعادة ، والزيّ ، والمدنية . فان العربي مثلاً اذا سمع بذكر « الجمل » في قصيدة او مقطوعة ادبيـة ، أنست به مخيّلته ، وراحت تضرب امامه في مفاوز البادية ، راجعةً ثلاثة عشر قرناً الى الوراء ، مثيرةً امام عينيه مدنية ذاك الشعب الجاهلي المستندة الى الإبل باسباب متينة ؛ فيرتاح الى آثاره الادبية الاولى ويتذكر « الحـداء » وما كان « للجمل » من التأثير في تكييف نزعة العرب الى الفنّ الشعري . امـا اذا ذكرنا « الجمل » امام رجل اوربي أنشىء على الثقافة « المدرسية » ، فتراه ينفر ويشمئزّ من فساد الذوق . وربما عدّ اللفظة من نوع الاهانات كما يستعملها الفرنسيون غالباً .

اذاً لكلّ امة نزعة خاصة الى تفهُّم الادب ، وتذوُّق فنونه . على ان هذه المزايا والنزعات الخاصة اذا دقّقنـا فيها النظر ، نراهـا غير متأصلة في نفسيّة الادب . فهي مظاهر خارجية يتلقّح بها موضوع الادب العامّ فتدنيه من البيئة الشعبية ، وتكيّف اساليبـه ، وتعابيره ، وصُوَره . وقلّما تصل الى جوهره الذي هو واحد لأنـه ناتج عن الفكر الانساني الواحد . وعليه ، فاذا حلّلنا جميع منتوجات الادمغة البشرية على اختلاف الأعصر والأمصار ، فافرزنا جانباً كلّ ما هو ناشىء عن الازمنة والعادات الخاصة ، نجد جوهراً واحداً تنعكس على اعراضه الخارجية مدنيات الشعوب بميزاتها المختلفة ؛ بل سلسلةً متينة تجمع فيها حلقـات الآداب القومية المتباينة ؛ ولكنها تظلّ واحدة بوحدة الفكر البشري .

وادقّ برهان على ذلك ذاك الشبه الدقيق ، بل توارد الخواطر ، الـذي تتحدّثه بين جميع الشعوب في التعبير عن الموضوعات البشرية الثابتة التي لا تتغيّر بتغيُّر المكان والزمان ، كموضوعات الانسان ، والحياة ، والموت ، والآخرة . . . وما تجرُّه من العواطف ، والتأملات ، والخواطر .

الانسان

ونحن قد نرى الصورة ذاتها التي استعملها وليد الحجاز ، علي بن ابي طالب ، في القرن السابع ، للتعبير عن مسكنة الانسان مثلاً ، تقطع عـدّة بلدان ،

وتجتاز عشرة قرون ، فيستعملوا الفرنسوي پسكال في القرن السابع عشر للتعبير عن مسكنة الانسان نفسها.

قال علي بن ابي طالب :

« مسكين ابن آدم ! مكتوم الأجل ، مكنون العلل ، محفوظ العمل ؛ تؤلمه البقّة ، وتقتله الشرقة ، وتُنتنه العَرقة ! »(١)

وقال پسكال :

«L'homme n'est qu'un roseau, le plus faible de la nature, mais c'est un roseau pensant. Il ne faut pas que l'univers entier s'arme pour l'écraser. Une vapeur, *une goutte d'eau, suffit pour le tuer.*»(٢)

وليتنبه المطالع لكلمة علي : « وتقتله الشرقة » ، وكلمة پسكال : « *une goutte d'eau suffit pour le tuer.* » فيرى كأنها ترجمة حرفية للأولى واني احيله ايضاً على ما كتبه پسكال في المادة الاولى من خواطره ، وهي المعروفة باللانهائيَين (Les deux infinis) فيرى كل ما ذكره عن الانسان وتناقضاته ، وتقلقله بين المسكنة والعظمة : المسكنة بمادياته ، والعظمة بروحه التي تجعله اعظم تمّا يقتله لانه عارف بضعفه وتفوُّق الكون عليه . اما الكون المادي فلا يعرف شيئاً من ذلك(٣) : وهذه العظمة مظهر خاصّ بانسان پسكال لم ينتبه لهُ علي بن ابي طالب . وعلى كلّ فليقرأ المطالع ذاك الفصل بامعان وليجتهد في تلخيصه ، فلا يرى تلخيصاً اتمّ من هذا القول لعلي :

« لقد عَلق بناط هذا الانسان بضعةٌ هي اعجب منهُ ، وذلك القلب . ولهُ موادّ من الحكمة ، واضداد من خلافها : فان سنح لهُ الرجاء ، أذلّه الطمع ؛ وان هاج بهِ الطمع اهلكه الحرص ؛ وان ملكه اليأس ، قتله الاسف ؛ وان عرض لهُ الغضب ، اشتدّ بهِ الغيظ ؛ وان اسعده الرضى ، نسي التحفّظ ؛ وان ناله الخوف ، شغله الحذر ؛ وان أتّسع لهُ الأمن ، استلبته الغيرة ؛ وان افادَ مالاً ، اطغاه الغنى ؛ وان اصابته مصيبة ، فضحه الجزع ؛ وان عضّته الفاقة ، شغله

---

١) علي بن ابي طالب : نهج البلاغة – الروائع (١ : ١٤)

٢) Pascal : *Pensées - Edition* Margival 7 - *p.* 12

٣) Pascal : *op. c. p.* 1 - 18

البلاء: وان جهده الجوع، قعد به الضعف: وان افرط به الشبع، كظّته البطنة. فكل تقصير به مضرّ، وكل إفراط له مفسد»

هـذا الانسان، هذا المخلوق العجيب، الذي يرفعه الفلاسفة تارةً الى درجات الملائكة، وينحدرون به طوراً الى دركات الحيوانات البُهم. ولكنهم يتفقون جميعاً على حقارة اصله التي دلّ عليها الكتاب في مواضع عديدة[1]، وقال عنها بوصويه:

«De quelque superbe distinction que se flattent les hommes, ils ont tous une même origine, et cette origine est petite»[2]

وانحدر بها ابو العلاء حتى الجماد، فقال:

والذي حارت البريّة فيه حيوانٌ مستحدَثٌ من جمادِ

فجاوبه بسكال ان ليس الانسان حيواناً اعجم ولا ملاكاً، ولكنهُ قد يستطيع ان يكون كليهما

« L'homme n'est ni ange ni bête, et le malheur veut que qui veut faire l'ange fait la bête ».

هذا الانسان الذي نراه عظيماً برغباته، طامحاً الى ما وراء الوجود بتمنياته على الرغم من تعلّقه بالمادّة، حتى ان لامرتين يجعله الهاً هابطاً من السماء فيقول:

Borné dans sa nature, infini dans ses vœux,

L'homme est un dieu tombé qui se souvient des cieux.[3]

هـذا الانسان، الغريب الأطوار، كان ولا يزال موضوعاً مهمّاً للآداب المختلفة، تتفق الشعوب، على تباين نزعاتها، في البحث فيه وابداء آرائها في ماهيّته. فلهُ اذن الدور المهمّ في درس «مقابلة الآداب». ولم تكن حياته القلقة على هذه الأرض، وموته، ومصيره، لتقلّ عن ماهيّته، تأثيراً في ادباء الامم المختلفة، فتناولوها بالبحث ايضاً كما تناولوا الانسان واتفقوا، عن غير قصد، في كثير من افكارهم عنها كما سنرى في العدد القادم.

١) سفر التكوين (٢: ٧، ٣: ١٩، ١٨: ٢٧ ...)

٢) Bossuet : *O. F. Duch. d'Orléans*

٣) Lamartine : *Méditations*, I, 2